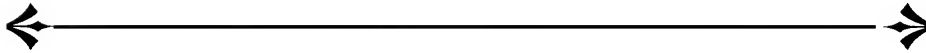


الفكر التربوي عند الغزالي من الشك المنهجي إلي اليقين

أ. د. عبدالله المجيدل (*)



المقدمة:

«الإنسان مجبول على حب

كل جميل، لذات الجمال»

«الغزالي»

يعد الغزالي فقيها حرا، اجتماعيا خبيرا بأحوال العالم، فيلسوفا ناهض الفلسفة وكشف ما يعتريها من زخرف وزيف، بالإضافة إلى كونه صوفياً زاهداً، ومربياً فاضلاً متعطشاً إلى معرفة كل شيء فدخل إلى دائرة معارف عصره، ونهل من كل فروع المعرفة، ولمع في مجالات عديدة مثل السياسة والفلسفة وعلم النفس والدعوة وغيرها، ومن ثم استحق أن يلقب بحجة الإسلام.

(*) أستاذ في كلية التربية - جامعة دمشق. عضو جمعية البحوث في اتحاد الكتاب العرب.



الأسرة والنسب:

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، وكنى بأبي حامد لولد له مات صغيراً، واشتهر بالطوسي نسبة إلى طوس وهي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، وتضم بلدين هما: الطابران، ونوقان. (الحموي، بلا، ٤٨).

والغزالي بالتشديد نسبة إلى الغزال على عادة أهل خوارزم وجرجان فإنه ينسبون إلى القصار القصاري وإلى العطار العطاري وهو المشهور عندهم (ابن خلكان، بلا، ٢١٥).

والغزّال هو كثير الغزل على وزن فعّال، وإضافة الياء إلى الغزال، مبالغة تدل على نسبة بعد نسبة على العادة المذكورة. فأبوه نسب إلى غزل الصوف فسمى بالغزّال للمبالغة، ونسب أبو حامد إلى أبيه فصار الغزالي، بالتشديد وياء النسبة، وهناك من يرى أن الغزالي منسوب إلى غزالة وهي قرية من قرى طوس، وأيد رأيه هذا برواية الغزالي التي قال فيها أخطأ الناس في تثقيب جدنا وإنما هو مخفف. وأنكر بعض الباحثين هذه النسبة وشككوا في هذه الرواية وذهبوا إلى أنها منحولة. (عبد الأمير الأعسم، ١٩٨١، ٢٨). وأسرة الغزالي معروفة في التاريخ لوجود علماء أجلاء من بعض أفرادها إضافة إلى حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين، هناك العلامة أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي الواعظ المشهور وهو شقيق حجة الإسلام. وكان والد الإمام محمد الغزالي، رجلاً من الصالحين، وكان محباً للعلم والعلماء، يحضر مجالسه الفقهاء والوعاظ، ويقوم بخدمتهم، ويحسن إليهم بما رزقه الله تعالى من كسب يده، وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه ابناً فقيهاً من الفقهاء، وابناً واعظاً من الوعاظ، فاستجاب الله له ورزقه محمد وهو حجة الإسلام، وأحمد وهو الواعظ المشهور. اهتم الوالد بابنيه اهتماماً بالغاً، وقد ادخر لهما قليلاً من المال من كسب يده ليساعدهما في دراستهما، فلما حضرت منيته أوصى بابنيه إلى أحد أصدقائه وطلب منه أن يقوم بتربيتهما وتعليمهما والإنفاق عليهما مما أورثهما وكان الصديق من المتصوفة، فرباهما تربية دينية صحيحة.

حياته:

يمكن أن نلمس أربع مراحل عبرها تطورت حياة الإمام الغزالي، جاءت المرحلة الأولى بعد موت أبيه حيث أوصى قبل وفاته أحد أصدقائه بتربيته وشقيقه أحمد، فوفى الصديق الصوفي بالعهد، وعمل بالوصية إلى أن فني المال الذي خلفه لهما أبوهما، ومن ثم تعذر على الصديق الصوفي القيام بالواجب فقال للولدين (محمد وأحمد)، اعلموا أنني قد أنفقت عليكم ما كان لكما وأنا رجل فقير، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم،



فيحصل قوت يعينكما على وقتكما. ونصحهما أن يتعلما في مدرسة مجانية من تلك التي أسسها نظام الملك، وهكذا دخل الولدان (محمد وأحمد) المدرسة وتفوقا فيها على جميع أترابهما. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٢٣). ولا شك في أن هذا الصديق الصوفي الوفي كان سبباً في سعادتهما وعلو درجتهم ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة التوجيه.

أما المرحلة الثانية في حياة الإمام الغزالي فبدأت على يد الفقيه الرازكاني حيث درس بنظامية طوس عملاً بنصيحة مربيه الصوفي في عام ٤٦٥هـ، وقضى الغزالي بهذه المدرسة فترة زمنية وإن لم تكن معروفة إلا أنها مهمة في حياته حيث تعلم فيها القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الدينية، بالإضافة إلى الأخلاق الفاضلة والقيام بالعبادات المختلفة، وهنا ظهرت عليه علامات النبوغ والذكاء وحب العلم، لذا ازداد تطلعه وتفتت طموحاته فأخذ ينظر إلى ما هو أوسع من طوس فارتحل إلى جرجان (سليمان، ١٩٧١، ١٩)، وعلى أية حال يمكننا أن نطلق على هذه المرحلة من حياة الإمام الغزالي مرحلة اكتشاف الذات.

وجاءت المرحلة الثالثة والتي يمكن أن نطلق عليها مرحلة الحفظ والتمحيص حيث درس من خلالها الفقه الشافعي وقواعد اللغة العربية الفارسية وسافر إلى جرجان ومكث بها خمس سنوات ثم عاد إلى بلاده طوس، وفي طريق العودة تعرض لحادث سرقة، وبعدها أقبل على القراءة والدراسة حتى حفظ العلم وزادت رغبته في الإمام بالمزيد من العلم. (محمد عبد الستار، ١٩٨٢، ٢٠٩). أما مرحلة الإبداع في حياة الإمام فهي المرحلة الرابعة والتي تأتي على قمة مراحل دراسته كلها، لأنه درس فيها على يد الإمام أبي المعالي الجويني النيسابوري، وهو من الأئمة الذين ذاع صيتهم وكان يتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام. ودرس الغزالي في هذه المرحلة علوم المذاهب والخلاف، الجدل، المنطق، علم الكلام، الحكمة، الفلسفة فأصبح عالماً من أعظم علماء عصره يحتاج برأيه، ومناظراً فذاً حتى وصفه الإمام الجويني بأنه بحر مغدق.

اهتمام الغزالي بالفلسفة:

يبدو من أقوال الغزالي أنه اهتم بالفلسفة ودراستها، وفهم حقائقها ونقدها، والسير على منهجها، والتأليف فيها، وتكفير الفلاسفة وتبديعهم في أمور معينة، ولا شك أن موقف الغزالي المزدوج من الفلسفة جعل الباحثين إلى يومنا هذا يختلفون في حقيقته بالنسبة للفلسفة، فذهب بعضهم إلى أنه فيلسوف وذهب بعضهم الآخر إلى أنه ليس بفيلسوف. وإذا تتبعنا خطوات الإمام الغزالي في دراسته للفلسفة، نجد أنه درس الفلسفة دراسة عامة على يد الإمام الجويني في نيسابور، وبعد انتقاله إلى بغداد درس الفلسفة دراسة خاصة، ومرت دراسته للفلسفة بخطوتين أساسيتين الأولى قراءة كتب الفلسفة ومحاولة فهم موضوعاتها، والثانية إعادة



القراءة لاستيعاب الموضوعات وفهم ما اشتبه عليه، ومن هنا خرج الإمام الغزالي بتهافت وتخفيف الفلسفة.

منهج الغزالي في البحث والدراسة:

اشتمل منهج الإمام الغزالي على مبدأ وعدة خطوات، أما عن المبدأ فهو معرفة الله مقدمة على معرفة أهله، وقد اخذ الغزالي هذا المبدأ عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله، (محمد الغزالي، ١٩٧٣، ٥٣). وعلق الإمام الغزالي على قول الإمام علي رضي الله عنه قائلاً: والعاقِل يعرف الحق ثم ينظر إلى نفس القول، فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال. (محمد الغزالي، ١٩٧٣، ٥٤)، والذي يعرف الحق بالرجال لا الرجال بالحق هو عند الغزالي من ضعفاء العقول ويكون حائراً في متاهات الضلال، لذلك أمر الغزالي رحمه الله تعالى سالك طريق الحق أن يقتدى بقول الإمام علي كرم الله وجهه حيث قال: اعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق. (محمد الغزالي، بلا، ٢٣).

أما عن خطوات منهج الإمام الغزالي في الدراسة والبحث فتتمثل في:

- الشك المنهجي.
 - القواعد المنهجية.
 - التأمل.
 - التحرر من التقليد.
 - الوسائل.
- وسوف نوجزها على النحو الآتي:

الشك المنهجي:

هو شك العالم الباحث اتخذه وسيلة للوصول إلى اليقين وهو الخطوة الأولى في التفكير عند الإمام الغزالي، على اعتبار مقولته المشهورة: الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال، معنى ذلك أن الشك عند الغزالي ضرورياً لأنه يعني النظر الذي يؤدي إلى الإبصار، ومن ثم يصبح الوصول إلى الحقيقة ممكناً والبحث ناجحاً. (زقزوق، ١٩٧٩، ٥٠). والشك المنهجي عند الغزالي يعني الاعتراف بوجود الحقيقة التي تؤدي إلى الإيمان بهذا الوجود، وبالتالي تتكون الإرادة والرغبة والقوة لدى الباحث في العمل.



التحرر من التقليد:

يرى الإمام الغزالي أن التقليد يضر بالإنسان ويهلكه، وعلى الباحث أن يعتمد على بصيرته، ولا خلاص إلا في الاستقلال الذي لا يكون إلا بطريق النظر. وعلى الإنسان ألا يكون في صورة أعمى يقلد قائداً يرشده إلى الطريق لأن الإنسان في نهاية الأمر سيعلم أنه لا خلاص إلا في الاستقلال.

القواعد المنهجية:

لقد وضع الغزالي قواعد علمية لبحثه عن الحقيقة وسار عليها وتمثل هذه القواعد في الآتي:

- البداهة واليقين: حيث إن العلم اليقيني هو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنته لو تحدى بإظهار بطلانه، مع العلم أن كل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.
- المراجعة التي تدعو إلى التأكد: فلكي يطمئن الباحث أنه لم يغفل عن أي جانب من جوانب القضية التي يريد حلها فلا بد له من المراجعة حتى يتيقن بأن ما قطعه صحيح، وليس فيه سهو ولا التباس. (محمد الغزالي، بلا، ١٧٣).
- عدم التسرع: ويعني اجتناب التسرع في اتخاذ حكم تجاه أي قضية من القضايا لأن الخطأ يكون في التسرع، وإذا حدث خطأ في الحكم فلا بد من إعادة النظر في القضية.
- عدم التناقض: وتدعو هذه القاعدة إلى معرفة سبب وقوع التناقض حيث إن التناقض في البراهين الجامعة لشروط أي منهجية محال وإذا وجد التناقض في البراهين، فإن معنى ذلك أنه يوجد خلل في الشروط.
- الثقة من الحكم: على اعتبار أن الثقة الكاملة من الحكم تجعل الإنسان يدافع عنه ولا يتردد، مهما بلغ شأن المعارض، لأن العقل يستطيع الوصول إلى اليقين ما دام على فطرته السليمة. (محمد الغزالي، بلا، ١٧٣).

- وسائل الإدراك عند الإمام الغزالي:

يرى الغزالي أن الحواس والعقل والقلب ثلاث وسائل للإدراك لها حدود تقف عندها ولا تتجاوزها، فكل واحدة منها مجال خاص بها، والوصول إلى اليقين بها ممكن، فعلى سبيل المثال في مجال الحسيات الملح أبيض، والقمر مستدير، والشمس مستديرة، وهذه الأمور واضحة وإذا تطرق الغلط إلى الإبصار فإنما بأمور عارضة، فيغلط الإنسان لأجلها مثل بعد



مفرط أو ضعف في العين أو كثافة الوسط. (محمد الغزالي، بلا، ١٨٧). وفي مجال التجريبيات فإن الحجر هاو إلى الأرض والنار متحركة إلى أعلى والخبر مشيع، والخمر مسكر وهذه الأمور واضحة عند من جربها. وفي مجال المتواترات علمياً مكة أم القرى، والشافعي إمام وفقهه، وعدد الصلوات خمس صلوات. أما في مجال العقلية أو الأوليات التي اقتضت ذات العقل بمجرد حصولها من غير استعانة بحس للتصديق بها مثل علم الإنسان بوجود ذاته، وأن الاثنين أكثر من الواحد وهكذا، وأما الذوق أو القلب فهو كالمشاهدة، والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية ولا سبيل إليه للعقلاء ببضاعة العقل. (محمد الغزالي، بلا، ٦٢).

وطريق الصوفية يقوم بعلم وعمل، وحاصل عملهم قطع عقبات النفس، والنتزعة عن أخلاقها المزعومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله تعالى.

- وعبر الغزالي عن حدود هذه الوسائل بالأطوار فلإنسان ثلاثة أطوار هي:
- الحواس وهي الحواس الخمس المعروفة كاللمس والشم والسمع والإبصار والتذوق.
 - العقل.
 - القلب أو الذوق.

وكل إدراك من هذه الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على علم من الموجودات، فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب، وما سيكون في المستقبل وأمور أخرى العقل معزول عنها وهذا هو طور القلب. (محمد الغزالي، ١٩٧٣، ٨٤).

رأي الغزالي تجاه بعض القضايا:

هناك مجموعة من القضايا كان للإمام الغزالي رحمه الله تعالى رأي واضح ومحدد تجاهها ومن هذه القضايا:

حرية الإنسان:

يرى الغزالي أن كل حادث في العالم هو فعل الله، وخلق واختراعه، فقد خلق الخلق، وصنّفهم، وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له، ومتعلقة بقدرته. إن انفراد الله سبحانه وتعالى باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة لهم على سبيل الاكتساب، فالله خلق القدرة والمقدور جميعاً، وخلق الاختيار والمختار جميعاً، أما القدرة فهي خلق للرب ووصف للعبد، وليست بكسب له، وأما الحركة فخلق للرب ووصف للعبد، وكسب



له. ففعل العبد وإن كان كسباً له، فلا يخرج عن كونه مراداً لله، فلا تجري طرفة عين ولا لفظة خاطرة ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدرته، منه الخير والشر، والنفع والضرر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران، والغواية والرشد، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٣٠).

وتأسيساً على ما سبق فإن الغزالي يرى أن الله سبحانه وتعالى وراء كل عمل للجماد، ووراء كل عمل وقدرة للحيوان والإنسان، فالله تعالى هو الذي جعل النحل يشكل بيوته على شكل مسدس، وهو الذي جعل العنكبوت ينسج بيوتاً ذات أشكال غريبة يتحير المهندس في استدارتها. والأعمال التي تصدر عن الإنسان من غير سابق علم أو إرادة، فيرى الغزالي أنها مقدورة لله تعالى خلقها في البشر من غير أن يخلق لهم القدرة عليها، أما الأعمال الاختيارية التي تصدر عن الإنسان وهي مسبقة بمعرفة وإرادة، فهي أيضاً من فعل الله تعالى ولكنه سبحانه وتعالى قبل أن يخلقها خلق القدرة عليها، وقبل القدرة خلق الإرادة، وقبل الإرادة خلق العلم، وبالتالي يؤكد الغزالي على أن الإنسان مجبر حتى في الاختيار، لأن الله تعالى هو الذي خلق كل شيء في الإنسان أي خلق العلم والإرادة والقدرة والعمل، ويعلل الغزالي ذلك بأنه كيف يكون الفعل لله والكسب للعبد؟ ونعتقد أن الغزالي لم يكن موفقاً في طرحه لقضية حرية الإنسان، بل نرى أنه دار في حلقة مفرغة، على اعتبار أن الإنسان يقوم بمجموعة من الأفعال أو الأعمال منها ما هو إرادي أي مخلوق للإنسان باختياره المحض سواء أكان خيراً أو شراً، لأن الإنسان حر قادر ويمكن أن يريد ويعمل ما يريد، وهو مأمور بأعمال عقله وبالتالي مسؤول عن كل أعماله، ولولا ذلك لبطل التكليف وبطل بالطبع الثواب والعقاب، ولما كان لرسالة الرسل والأنبياء معنى ولا مغزى، وفي الوقت نفسه يقوم الإنسان بعدة أفعال لا إرادية فلا شأن للإنسان بها، ولا دخل له فيها.

قضية العقل والنقل:

يرى الغزالي أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق والمعقول، فإن من ظن من الحشوية وجود الجمود على التقليد وإتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر. فالعقل لا يهتدى إلا بالشرع والشرع لن يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأسس، والشرع كالبناء، ولن يفنى أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم أس، العقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من الخارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن هناك بصر، العقل كالسراج، والشرع كالزيت الذي يمدده، ما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيئ الزيت، فالشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل وهما متظاهران،



متعاضدان، بل متحدان. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٣٢). هذا بالإضافة إلى أن العقل لا يهتدى إلى تفاصيل الشرع لأنه لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة الكليات، أما الشرع فيصرف كليات الشيء وجزئياته، معنى ذلك أن العقل يعجز عن إدراك التفاصيل الدقيقة من مادة الشرع، بل يمكن أن يدرك الجزئيات.

قضية رعاية الأصلح للعباد:

يرى الغزالي أنه لا يجب على الله تعالى رعاية الأصلح لعباده، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، والخلق في حد ذاته يتضمن معنى رعاية الصالح، لأن الخلق فضل لا تنكيل وما رعاية الله لصالح عباده سوى نتيجة لعدله وحكمته اللا متناهية، فلا إرغام فيها ولا حجر عليه، فالعقل يأبى أن يكون الخالق الكامل ظالماً مستبداً ويأبى أيضاً أن يكون المخلوق العاقل مظلوماً مخدولاً. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٣٤).

قضية التأمل:

يحتل التأمل مكاناً هاماً عند الإمام الغزالي، فهو يستخدمه كمنهج لحل المشكلات والوصول إلى الحقيقة، ووفق منهج التأمل عند الغزالي فإن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصر، والمعرفة والتبصر يحتاجان إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وحل المشكلات بطول التأمل وإمعان النظر، فالأعمال إنما تكون بعد الفهم وهذا لا يكون إلا بالتأمل. (محمد الغزالي، بلا، ٣١). وأخذ الغزالي يتأمل في المحسوسات والضروريات، واستخدم التأمل الفلسفي في البحث عن الحقيقة الإلهية حيث بدأ بالبحث عن حقيقة النفس الإنسانية وأثبت وجودها بأدلة عقلية ثم تدرج إلى معرفة الله تعالى.

قضية النقد:

كان الغزالي باحثاً عن الحقيقة ومتخذاً الشك وسيلة له بداية لتفكيره، وجعل ينقد العادات والتقاليد والعقليات، وانتهى منها إلى صراع فكري عنيف وبعدها عادت نفسه إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة عنده موثقاً بها على أمن ويقين قذفه الله في صدره، (محمد الغزالي، ١٩٧٩، ٣٢). وبعد ذلك اتجه الغزالي إلى مذاهب عصره الفكرية ودرسها دراسة واعية ونقدها نقداً سليماً، ومن هذه المذاهب:

- مذهب المتكلمين.
- مذهب الفلاسفة.
- مذهب الباطنية.



- مذهب الصوفية.
- وتتمثل خطوات منهج الغزالي في النقد في:
- دراسة كتب المحققين دراسة واعية والاطلاع على محتواها حتى يصل إلى مستوى أصل العلم فيها.
- الاطلاع على ما لم يطلع عليه أصحاب هذه المذاهب حتى يقف على غور المذهب وغائلته.
- تحديد مواطن الفساد في المذهب والرد عليها. (المهدي، ١٩٩٣، ١٣٦).

قضية الفلسفة:

- لقد درس الإمام الغزالي الفلسفة دراسة خاصة في بغداد، وألف فيها ثلاثة كتب هي: مقاصد الفلسفة الذي يدل على فهم الغزالي للفلسفة فهماً صحيحاً، وبعد هذا الفهم الصحيح للفلسفة، الفهم الذي يؤهله للوقوف على فسادها والرد على الفلاسفة، كتب كتابه الثاني تهافت الفلاسفة الذي اكتمل من خلاله منهج الغزالي نظرياً وعملياً في نقد الفلسفة والفلاسفة اليونانيين والإسلاميين، ثم جاء كتابه الثالث الذي يحمل اسم المنقذ من الضلال وذكر عبر صفحاته خلاصة دراسته في الفلسفة وصورتها.
- وقسم الغزالي الفلسفة إلى ثلاثة أقسام هي:
- الدهريون: وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، والعالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك، بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة.
 - الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في تشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته، وعليه اعترفوا بقادر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. وبالرغم من ذلك إلا أنهم ذهبوا إلى أن النفس تموت وتعود، وجحدوا بالآخرة وأنكروا الجنة والنار والحشر، والنشر، والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب فأنحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام. وهؤلاء أيضاً زنادقة لأن أصل الإيمان بالله الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا باليوم الآخر وإن آمنوا بالله وبصفاته. (المهدي، ١٩٩٣، ١٣٨).

- الإلهيون: وهم المتأخرون ومنهم سقراط وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس، وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم



يكن محرراً من قبل، وأنصح لهم ما كان فجاً من علومهم، وهم بجملتهم ردوا على الدهرية والطبيعية.

قضية تقسيم العلوم:

قسم الغزالي علوم الفلاسفة وخاصة الإلهيين إلى ستة أقسام هي:
- العلوم الرياضية: وهي التي تتعلق بعلم الحساب والهندسة، وعلم هيئة العالم وليس بها شيء يتعلق بالأمور الدينية نفيًا أو إثباتًا، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاهدتها بعد فهمها ومعرفتها.

- المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا أو إثباتًا، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح، وكيفية ترتيبه، وأن العلم إما التصور وسبيله معرفته الجد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر. (المهدلي، ١٩٩٣، ١٤٢).

- الطبيعيات: وتبحث عن عالم السموات وكواكبها، وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار، ومن الأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها، وعلى من يتعامل مع هذه العلوم أن يعلم أن الطبيعة مسخرة بقدرة الله تعالى، ولا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها والشمس والقمر والكواكب مسخرات بأمره تعالى.

- الإلهيات: وفيها أكثر أغاليطهم، فلم يقدروا على الوفاء بالبراهين على شروطها في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم، ومن الأمور التي خالفوا فيها كافة المسلمين:
* قالوا إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هو الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية معنى ذلك أنهم صدقوا في إثبات الروحانية ولكنهم كذبوا في إنكار الجسمانية وعليه فقد كفروا بالشرعية.

* قالوا إن الله تعالى يعلم الكلبيات دون الجزئيات وهذا خطأ وكفر صريح بل إنه سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه متقال ذرة من السموات ولا في الأرض. (المهدلي، ١٩٩٣، ١٤٤).

* قالوا إن العالم قديم أزلي موجود كما هو موجود فهذا خطأ.
- السياسات:

جميع كلامهم في هذا المجال يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية، وتم أخذها من كتب الله تعالى المنزلة على الأنبياء، وأيضاً أخذوها من الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.



الخلقية: ويرى الغزالي كلام هؤلاء الفلاسفة في هذا المجال يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وقد أخذوها من الصوفية حيث لا يخلو كل عصر من جماعة من المتألهين المثابرين على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملذات الدنيا. (محمد الغزالي، ١٩٧٣، ٥٧). وفي ضوء التصنيف السابق لأقسام العلوم عند الفلاسفة الإلهيون نجد أن الغزالي بذل جهداً مضميناً لدراسة الفلسفة بمنهج معتدل، قبل منها ما بدا له بأنه حق، ورفض منها ما يتقن أنه باطل، وكفر الفلاسفة الذين قالوا أقوالاً باطلة تخالف العقيدة الإسلامية. ومن هنا يمكننا القول إن الغزالي فيلسوف بحث عن الحقيقة بقدر طاقته، فكان يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول فإن كان حقاً قبله سواء كان قائلاً مبطلاً أو محقاً وكان يعرف تماماً أن قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلاً كما لا يجعل الباطل حقاً. وفي نفس الإطار أيضاً يجب إن نشير إلى أن الغزالي رحمه الله تعالى قد لفت أنظار الأجيال والدارسين إلى أهمية المنطق في الدراسات والأبحاث، كما أنه استخدم أدلة الفلاسفة في إثبات وجود النفس، ولعل ذلك يتضح من خلال كتابه معارج القدس في مدارج معرفة النفس.

قضية التصوف:

التصوف مذهب في الزهد والإنفراد عن الخلق والإقبال على العبادة والتأمل، ويختص أصحاب هذا المذهب باسم الصوفية أو المتصوفين لأنهم كانوا يلبسون الصوف الغليظ، كسائر النساك والزهاد والتائبين، وأطلق على بعضهم مسوحيين نسبة إلى مسوح جمع مسح وهو الكساء الخشن من نسج الشعر. وقد انتشر التصوف الحقيقي في القرن الثاني الهجري وما بعده وذلك بعد أن مالت الدولة العباسية إلى الانحطاط. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٣٥). وامتاز المتصوفون الأوائل بالميل إلى الخلوة والتقشف والإكثار من مجالس التلاوة وحلقات الذكر والقول بعشق الله وكشف الحجب بينه وبين العبد مع المحافظة على تعاليم السنة والقيام بفرائضها هذا هو تصوف المعتدلين أو تصوف المحافظين أمثال الحسن البصري، ورابعة العدوية التي جعلت الحب بدل الخوف قاعدة للزهد، وأبو القاسم الجنيد الذي حاول التوفيق بين الصوفية والإسلام. وعلى الجانب الآخر وجد التصوف المتطرف حيث استخف أصحابه بالفرائض الدينية وتخطوا تعاليم الإسلام إلى نظريات مختلفة من عندهم مثل نظرية الحلول التي ترى أن الله سبحانه وتعالى ينزل منزلة الساكن في الصوفي أو في غيره من الكائنات، ثم وحدة الوجود والتي تعني بأن الوجود جوهره واحد هو الله الحق، وما سائر الكائنات سوى مظاهر له وظلال. (رمزي النجار، ١٩٧٣، ٢٣٦). أما عن صوفية الغزالي فقد نشأ على



التصوف، فوالده كان يجالس المتصوفين، ومعلمه الأول كان صوفياً، وفي نيسابور أخذ طريقة التصوف عن الفارمدي أشهر مشايخ الصوفية في ذلك الوقت، ثم انهمك في العلم والتعليم مدة من الزمن، واطلع على فلسفة ابن سينا فتأثر بحكمته المشرقية، وكتب في خلوته بعض الكتابات التي يعالج فيها أمور التصوف مثل كتاب إحياء علوم الدين، أيها الولد، رسالة الطير، الرسالة الدينية، كيمياء العامة، ميزان العمل. ولقد أسس الغزالي تصوفه على إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة وباليوم الآخر، وركز على إتمام فرائض الشرع، إذ لا يجوز لأحد أن يعفي نفسه منها سواء في ذلك الرجل العادي أو طالب الكمال الصوفي. (شاخت، ١٩٩٨، ٧٢).

وإذا تناولنا كتاب إحياء علوم الدين نستطيع أن نستنبط صورة التصوف الحقيقي عند الغزالي فعلى سبيل المثال تناول في القسم الأول من الكتاب العبادات من طهارة وصلاة وزكاة وصيام وحج، ولم يدرس الشروط الخارجية لهذه العبادات فحسب، بل طلب أن يسمو بها المؤمن إلى الغاية التي من أجلها وضعت لئلا يتوقف عند القشور دون اللباب. فالطهارة عند الغزالي ليست وضوءاً وتطهيراً فحسب، بل هي أولاً تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرزائل الممقوتة، والصلاة ليست متممة كلام وركوعاً وقياماً وسجوداً، بل هي مناجاة لله بالقلب والنفس ثم اللسان ولكل فرض روحانية خاصة على المؤمن أن يفهمها، وإلا لم ينفذ إلى روح ذلك الفرض. (محمد الغزالي، بلا، ٦٠).

وهذه الروحانية الصوفية لم يدخلها الغزالي في العبادات فحسب بل في جميع الأعمال التي يقوم بها المؤمن، فإذا انتقلنا إلى القسم الثاني من كتاب إحياء علوم الدين وهو قسم العادات وجدنا الغزالي يبحث فيه عن الأكل والنكاح والكسب والصحة والمعاشرة والعزلة والسفر وغير ذلك، شارحاً آداب كل منها ومتقيداً بمبادئ الدين وإلزامات العقل فيها. (المرجع السابق، ٦٠).

أما القسم الثالث من الكتاب وهو قسم المهلكات ومن خلاله يطلب الغزالي رحمه الله تطهير القلب استعداداً لسلوك الطريق، فيحدد جميع العيوب، كشهوة البطن وشهوة الفرج وآفات اللسان والغضب والحقد والحسد والمال والجاه والرياء والكبر والعجب والغرور، مبيناً أسبابها، واصفاً الأدوية لمعالجتها، ذاكراً أفضل ما قيل في ذمها أو مدح أضرارها. (المرجع السابق، ٦١).

وجاء القسم الرابع من الكتاب ليتناول المنجيات ومن أهمها الزهد، حب الله، الفناء في الله، الإلهام، على اعتبار أنه بعد تنقية القلب يستطيع المريد أن يقطع المقامات وهي ملكات تستقر في نفس السالك لطريق التصوف. (المرجع السابق، ٦١).



رأي الغزالي في المنجيات:

أ. الزهد:

يرى الغزالي أن الزهد مقام شريف من مقامات السالكين، ينتظم من علم وحال وعمل كسائر المقامات، فالعلم سبب يجري من الحال مجرى المثمر، والعمل نتيجة يجري من الحال مجرى الثمرة. فالزهد إذن عنده عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه أو ترك المحبوب إلى ما هو أحب منه، عدول عن الدنيا إلى الآخرة، أو عدول عن غير الله إلى الله. ويقسم الغزالي الزهد إلى ثلاثة أقسام الأول منها يعرف بزهد الخائفين ويمثل الدرجة الدنيا في الزهد حيث يكون المرغوب فيه النجاة من النار وعذاب الآخرة، والثاني منها يعرف بزهد الراجين ويكون المرغوب فيه ثواب الله أي اللذات الموفورة في جنته، أما الثالث منها والذي يمثل الدرجة العليا فيعرف بالزهد المطلق وفيه لا يكون للزاهد رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى آلام العذاب أو لذات النعيم. (رمزي النجار، ١٩٧٣، ٢٣٩).

وللزاهد علم وعمل، فعلمه يجعل المتروك حقيراً على اعتبار أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، وأما عمله فترك المزهود فيه وهو الدنيا بأسرها مع أسبابها وعلائقها، وأفضل الزهد عند الغزالي ما كان من ضروريات الحياة مثل المطعم والملبس والسكن والأثاث والمنكح والمال والجاه، ويرى أيضاً أن القوت الحلال هو ما يقتصر فيه على دفع شدة الجوع والمرض والملبس أقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، من الصوف الخشن أو القطن الغليظ، والسكن أقل الدرجات فيه ما دفع المطر والبرد والعين والأذى كزوايا المساجد والأكواخ والأبنية التي هي قدر الحاجة من غير زيادة، كذلك الأثاث يجب أن يقتصر فيه على ما لا يستغنى عنه ويكون من الجنس الخسيس، والمنكح واجب حيث يكون أفضل لدفع الشهوة الغالبة لكن يجب الزهد فيه إذا علم الصوفي أن المرأة تشغله عن ذكر الله والجاه والمال فهما وسيلة للخمس السابقة، فالجاه من أجل طلب المحل في قلب السلطان لجلب نفع أو لدفع ضرر أو للخلاص من ظلم فضاوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قائله وكثيره، أما المال فالقليل منه ضروري للمعيشة على أن يزهد الصوفي في كل ما جاوز حاجة يومه، وعلامة الزهد في الجاه أن يستوي عند المرء ذامه ومادحه، وعلامة الزهد في المال ألا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود. (رمزي النجار، ١٩٧٣، ٢٤٠).



بـ حب الله:

تعدُّ محبة الله هي الغاية القصوى من المقامات عند الغزالي، وهي الذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع بها كالشوق والأنس والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالنوبة والصبر والزهد وغيرها. والمستحق للمحبة هو الله وحده، لأن أسباب المحبة مجتمعة في حقه ووجودها في غيره وهم وتخيل ويرجع ذلك إلى:

١- حب الإنسان نفسه وبقائه وكمالهِ ودوام وجوده ولا شيء له من ذلك لولا فضل الله عليه.

٢- حب الإنسان من أحسن إليه والمحسن إليه هو الله تعالى فقط.

٣- حب الإنسان للمحسن في نفسه وإن لم يصله إحسانه، والله هو المحسن إلى الخلائق كافة.

٤- الإنسان مجبول على حب كل جميل لذات الجمال، وليس لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال والله هو منتهى الجمال والعلم والقدرة والكمال.

٥- حب الإنسان لمن بينه وبينه مناسبة وباشبه ومشاكله لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل وبين الله والإنسان مناسبة باطنية. (رمزي النجار، ١٩٧٣، ٢٤١).

ويرى الغزالي - رحمه الله - أيضاً أن العبد يكتسب حب الله عز وجل عن طريق قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب حيث إن القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء كما أن قوة المحبة تكمن في قوة معرفة الله فلا بد من اتساعها واستيلائها على القلب بعد تطهيره من جميع شواغل الدنيا.

٦- الفناء في الله: يرى الغزالي أن الصوفي في نهاية المجاهدات ينقطع عن العالم الظاهر بأسره، ويتعطل فيه كل عمل وحب وخيال وفكر وإرادة ويستغرق بكلية في الله، فتتلاشى نفسه وتفتنى في الحق، وفي هذه الحالة تمحى أوصاف الإنسان وتبقى أوصاف الحق ونعوته.

٧- الإلهام: يرى الغزالي أن القلب بغريزته مستعد لقبول المعلومات لكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وشرعية ودينية، فالعقلية هي ما تقضي به غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي على نوعين ضرورية يجد الإنسان نفسه مفطوراً عليها كالعلم بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً أو موجوداً معدوماً معاً، ومكتسبة أي مستفادة بالتعلم والاستدلال، أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريقة التقليد من الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله وسنة رسوله وقهر معانيها بعد سماع العلوم التي ليست ضرورية، إنما تحصل في القلب في بعض الأحوال، فتختلف الحال في تحصيلها، فتارة



تكتسب بطريقة الاستدلال والتعلم، وتارة تهجم على القلب كأنها ألقيت فيه من حيث لا يدري، فالعلم الذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً ويختص به العلماء، والعلم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد وينقسم إلى قسمين، ما لا يدري العبد كيف حصل عليه ومن أين حصله فيسمى إلهاماً، ويختص به الأولياء والأصفياء، وما يطلع معه العبد على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم ويسمى وحياً ويختص به الأنبياء. (رمزي النجار، ١٩٧٣، ٢٤٢).

وعلى أية حال فإن العناصر التي جاء بها الغزالي سارت به في اتجاهين متمايزين أحدهما عقلي أدى إلى تصوف يمكن أن نسميه ميتافيزيقاً أو عرفانياً والآخر ذو اتجاهات شعبية اتخذت شكلاً ملموساً يتمثل في الصوفية. والأمر الذي يميز الاتجاه الأول هو الاعتقاد بأنه يمكن الوصول إلى ما وراء العالم الملموس الذي هو مجرد مظهر لبلوغ عالم الحقائق المعقولة والروحانية وذلك عن طريق حدس وجداني وهو ما يسمى بالمعرفة، وعلى الصعيد العملي فإن الوسائل التي استخدمها الغزالي كصوفي أو متصوف تنوعت فيما بينها ومنها: الإخلاص البالغ، التحرز في أعمال العبادة، طول المجاهدة للنفس، وذكر الله عز وجل. (شاخت، ١٩٩٨، ٧٤).

منهج الغزالي في التعليم:

يقع المتتبع لرؤية الغزالي ومنهجه في التعليم على عدة مواضع في مؤلفات الغزالي تبين ملامح فكره التربوي، وترفع من شأن مهنة التعليم، (والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم واشرف موجود على الأرض جنس الإنس واشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه، والمعلم مشغول بتكميلة وتجميله وتطهيره وسياقته الى القرب من الله عز وجل، فتعلم العلم من وجه عبادة الله تعالى ومن وجه خلافة الله تعالى وهو من اجل خلافة الله، فان الله قد فتح على قلب العالم العلم الذي أخص صفاته، فهو كالحازن لأنفس خزائنه ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وتعالى وبين خلقه (الغزالي، ٢٠٠٢، ٢١).

فقد أكد الغزالي على دور المعلم كأب روعي للمتعلم حيث فضله على الأب الحقيقي وحبته في ذلك ان الأب منح ولده صورة جسد انية فكان سببا في وجود هذا الجسد في الدنيا ودوره هو إصلاح حال هذا الجسد في هذه الدار التي هي دار فناء أما المعلم فيعطي المتعلم صورة روحانية من خلال تغذية نفس المتعلم بالعلوم والمعارف التي تهدية إلى طريق الآخرة، وقال الغزالي في هذا الموضوع (... وكما ان حق ابناء الرجل الواحد ان يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ولا



يكون إلا كذلك ان كان قصدهم الآخرة...)(المصدر نفسه، ٥٧). كما سبق الغزالي كثير من المربين الغربيين الذين نادوا بالتدرج ونسبت هذه المقولة التربوية لهم في عملية التعليم من البسيط إلى المعقد ومن السهل إلى الصعب ومن المحسوس إلى المجرد فقد أكد الغزالي قبلهم بقرون، أن على المعلم مراعاة مستوى المتعلمين وان يعتمد التدرج في إعطاء المواد الدراسية لهم، حيث طلب من المعلم أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وان يمنعه من التصدي إلى طلب رتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، وأكد الغزالي في هذا الموضوع ان المعلم المختص في علم ما لا يجوز له تقبيح العلوم الأخرى فلا يجوز لمعلم اللغة تقبيح علم الفقه ولا يجوز لمعلم الفقه تقبيح علم الحديث والتفسير. .. الخ من العلوم، فهكذا عمل يمثل أخلاقاً مذمومة يجب على المعلم تجنبها وان عليه ان يوسع على المتعلم طريق التعليم للعلوم الأخرى (المصدر نفسه، ٥٨-٥٩).

اما عن وصف الغزالي للمعلم فقصد بهذا المعلم (الشيخ) الذي يعلم السالكين لطريق التصوف حيث أكد على ضرورة وجود شيخ ليرشد السالك ويخرجه من الأخلاق السيئة بتربيته فيجعل مكان الأخلاق السيئة أخلاقاً حسنة ويرشد السالك إلى سبيل الله تعالى لان الله أرسل للعباد رسولا إلى سبيله فإذا ارتحل (ص) من الدنيا فقد خلف الخلفاء في مكانه حتى انهم يرشدون الخلائق إلى الله تعالى، واشترط الغزالي عدة خصائص يجب توافرها في هذا الشيخ او المعلم حيث اشترط ان يكون عالماً ولكن لا كل عالم كما يرى الغزالي يصلح للخلافة — ولكي يصلح للخلافة يجب عليه فضلا عن كونه عالماً أن يكون معرضاً عن حب الدنيا وحب الجاه وان يكون تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين (ص). ان يكون محسناً رياضته نفسه بقلة الأكل والقول والنوم وكثرة الصلوات والصدقة والصوم فضلاً عن التزام محاسن الأخلاق كالصبر والشكر والتوكل واليقين والسخاوة والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني (الغزالي، ١٩٦٩، ٣٧-٣٨).

كما يرى الغزالي حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر حيث رفض الغزالي الخوض في حديثه عن هذا العلم مسألة الخوض في الجدل والخلافات لأنها مضرّة لصاحبها، وهكذا كان منهج الغزالي منصبا على المواضيع التي تتعلق بالدين الإسلامي حصراً وتحديداً. كان الغزالي في كلامه مطابقاً لفعله، ودليلنا على ذلك هو ترك الغزالي لمغريات الدنيا واعتزاله التدريس ولجؤه إلى حياة الزهد والتقشف مضحياً بالصيت والمال وهذا ما ذكرناه في حديثنا عن حياته، فهو ترك منصب الأستاذية ليصبح صوفياً، تمكن من تحسين ممارسة



التصوف بالشريعة وبشكل معتدل عند الطلاب والفقهاء رافضا إفراط بعض الصوفية الذين تركوا الشريعة واهتموا بالتصوف وادعاء بعضهم الإلوهية. (الغزالي، ١٩٦٩، ٣٧ - ٣٨). والمعروف عن الغزالي انه من الرافضين إلى مسألة تقرب صاحب العلم من السلاطين والحكام ومخالطتهم حيث طلب من صاحب العلم قائلا (أن لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم لان رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لان الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه). (المصدر نفسه، ٤٨ - ٤٩)، واعتبر قبول هدايا الأمراء من قبل صاحب العلم أمر فيه مفسدة للدين لان ذلك سيجعله يميل إلى جانبهم والموافقة على ظلمهم ويحبهم ومن أحب أحدا يحب طول عمره وبقائه، وفي محبة الظالم إرادة في الظلم على عبادة الله تعالى وإرادة خراب العالم وفي هذا مضررة للدين. (شمس الدين، ١٩٨٥، ٣٣).

أما عن تعليم علم الكلام والفلسفة فكان له موقف خاص حيث لم يصرح هل ان الكلام والفلسفة من العلوم المحمودة أم المذمومة وبين سبب ذلك مبتدئ بعلم الكلام حيث أوضح أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقران والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو أما مجادلة مذمومة وهي من البدع، وأما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها وتطويل بنقل المقالات، مسائل تزديها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول ولكنه صار مأذونا فيه وصار من فروض الكفايات بسبب حصول البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، أما الفلسفة كما يرى الغزالي فأنها ليست علما برأسها بل هي أربعة أقسام أو أجزاء الهندسة والحساب والمنطق والإلهيات والطبيعات، أما علم الحساب والهندسة فعدهما من العلوم المباحة بشرط ألا تتعدى الحد الذي تتحول فيه إلى علوم مذمومة أو عندما يخرج بها إلى حد البدع، أما المنطق فأدخله في علم الكلام، وادخل الإلهيات ضمن علم الكلام أيضا لأنها تتعلق بالبحث عن الله سبحانه وصفاته.

أما الطبيعيات فكانت نظرة الغزالي لها على أن بعضها مخالف للشرع والدين، وهذا المخالف يعتبر جهلا ولا يجوز أدراجه في أقسام العلوم، وأما ما يبحث في الأجسام وخواصها فهو شبيه بعمل الأطباء، مع الاختلاف في كون عمل الطبيب يحتاج إليه أما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها (الغزالي، ٢٠٠٢، ٣٣ - ٣٦). وبما أن الغزالي لم يحدد موقفه من الفلسفة وهل هي محمودة أم مذمومة فحكمها الإباحة وهذا ما يؤكد المنهج والأسلوب الفلسفي الذي بدا واضحا في كتاب التهافت. (العسكري، ٢٠٠٢، ١٨٨).



رأي الغزالي في التربية الجمالية:

لقد أدرك الغزالي محددات الذوق الجمالي والمستندة إلى التناسق العام والتوازن القائم بين الأجزاء وكمال التكوين الفني، ولا شك هذه تمثل الأسس الأولية للتربية الجمالية، والتي لم تغب عن فكر الغزالي، ويرى الغزالي أن جمال أي شيء يكمن في حضور كماله اللائق به والممكن له ومن ثم يصير شيئاً حسناً. (شاخت، ١٩٩٨، ٣٧٣).

كما يعتقد الغزالي أنه إذا كانت جميع كمالات الشيء الممكنة حاضرة فهو إذن في غاية الجمال، والخط الحسن هو الذي يجمع ما يليق به من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به، ولا يليق بغيره، وحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسن الإنسان ما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الألوان بما تحسن به الثياب وكذلك جميع الأشياء. (محمد الغزالي، بلا، ٧١).

قضية الشك عند الغزالي:

الشك بوجه عام هو تعليق الفصل بين قولين متناقضين لا يظهر رجحان أحدهما، أما الشك في الفلسفة فهو امتناع العقل عن إصدار حكم ما، أو إبداء رأي ما، لأسباب تختلف باختلاف موقف المتشككين من قضية المعرفة.

وقد أحسن الغزالي صنعا في طلبه اليقين عن طريق الشك في التقاليد الموروثة من أي نوع كانت، على اعتبار أن هذه الأمور تأتينا نقلاً، فلا تحكم العقل في قبولها وإذا بلغنا أشدنا كان من حقنا أن نعيد النظر فيها لكي نقبلها ونتبناها أو نرفضها عن اقتناع، ومن ثم فالشك هنا طريقة علمية للتثبت من الشيء قبل التسليم به وذلك يبعدنا عن الإدعاء والغرور. (العوا، ١٩٩٢، ١٨٦).

وقد مر الشك عند الغزالي بعدة مراحل تتمثل في الشك في العقائد الموروثة حيث إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب وكثرة الفرق وتباين الطرق كل ذلك بمثابة بحر عميق غرق فيه أناس كثيرون وكل فريق يزعم أنه هو الناجي وهنا جاء تعطش الغزالي لمعرفة الحقائق وطلب حقيقة الفطرة الأصلية، ومعرفة حقائق العقائد العارضة، وبعد ذلك جاءت المرحلة الثانية من مراحل الشك عند الغزالي ألا وهي مرحلة طلب العلم اليقيني حيث يريد من خلالها الغزالي أن ينكشف المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، وجاءت المرحلة الثالثة من شك الغزالي ممثلة في الشك في الحسيات حيث أقبل الغزالي نحو المحسوسات يتأملها وينظر إليها حتى وصل إلى فقدان الثقة



بالمحسوسات ومنها النظر إلى الكواكب كيف نراها صغيرة وعلم الهندسة يدل على أنها أكبر من الأرض، وهنا بطلت الثقة بالمحسوسات وانتقل الشك إلى مرحلة رابعة عند الغزالي وتمثلت في الشك في العقليات وعلته في ذلك النفس والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً، واجباً محالاً مثل قول رسول الله (ص): «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» ففعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة هكذا اعتقد الغزالي. (رمزي النجار، ١٩٧٩، ٢٥١). وبعد ذلك عاد الغزالي إلى طبيعته وعادت نفسه إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين وكان ذلك عن طريق نور قذفه الله تعالى في صدره، ذلك النور الذي هو مفتاح أكثر المعارف، فمتى ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة.

وفي ضوء ما سبق ندرك أن الغزالي بدأ بشك فلسفي، منهجي قويم سبق إليه فلاسفة العصر الحديث، ولكنه ما لبث أن جمح إلى شك سفسطائي وذلك بإنكاره التجليات الحسية والعقلية ولكنه عاد مرة أخرى إلى التسليم بمعطيات العقل الضرورية عن طريق نور قذفه الله تعالى في صدره.

الغزالي وديكارت:

أقرب الفلاسفة شبهاً بالغزالي هو «ديكارت» لأنه ارتاب كما ارتاب الغزالي وبقي في شكه وارتبابه زمناً غير قليل. ومما حمل ديكارت على الشك ما رآه في أسفاره من مختلف العادات والآراء، وتباين العقائد والمدركات، وما تبينه من تأثير التربية في التفرقة بين أخلاق الشعوب. وأهم ما تنبه له في رحلاته، الشك في قيمة الرأي العام، والاستهانة بكثرة الأصوات، لأن إجماع الأمة على رأي، لا يدل على أنه رأي الأمة، فقد يكون رأي فرد واحد، حملت عليه الأمة لسبب من الأسباب.

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل ديكارت على الارتباب، إذ قلما يوجد رأي غريب بعيد التصديق إلا وقد قال به فيلسوف. ولكن ديكارت كان أكثر صراحة من الغزالي: فبينما نجد الغزالي يحدثنا بأنه دام ما يقرب من شهرين على مذهب الفلسفة «بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال» أي أنه لم يكشف الناس بشكه إلا حين أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه، ونجده يحكم ببطلان الآراء التي بنى عليها آراءه حين ظنها حقة، وبوجوب التخلي مرة واحدة عن جميع آراءه، ليصنع بناءً جديداً على أساس جديد. ونرى الغزالي شك في المحسوسات، لأنه ينظر إلى الظل فيراه واقفاً لا يتحرك فيحكم بنفي الحركة، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة، أنه يتحرك ولكن بالتدرج.



ثم نراه يهتم بالشك في العقليات، لأنه يعتقد في النوم أموراً ويتخيل أحوالاً لها ثباتاً واستقراراً، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل، فيسأل: بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك، وقد يمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك؟

وكذلك نجد ديكارت يقر أن الأشياء التي سلم بها أثبت من غيرها وأصح، إنما كان اعتمد في صحتها وثباتها على الحواس، وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة - وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام، أو فضل المنام على اليقظة، وهو في كليهما مضلل مخدوع؟ (مبارك زكي، ١٩٨٨، ٣٣٨).

الفرق بين الغزالي وديكارت:

الفرق كبير بين الغزالي وديكارت، إذ إننا نجد فرقاً شاسعاً في مخرج كل منهما من حالة الشك. ففي حين خرج الغزالي من شكه بنور الله فقط حيث وجد الغزالي أن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة، وما دام الغزالي لم يرجع عن شكه «بنظم دليل وترتيب» كما قال، فمن العبث أن نستعين بالعقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك. وهذا يناقض كل ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه، حيث يبدأ ديكارت بنفسه فيفرض أن كل ما يراه هو باطل، فماذا يمكن أن يعد صحيحاً حينئذٍ؟ قد لا يثبت إلا عدم وجود شيء يقيني في العالم، ولكن يبقى بالطبع إنساناً شاكاً، أو الذات الشاكة، وأن هذا الإنسان لا محالة موجود وهنا يقول ديكارت كلمته المأثورة: «أنا أفكر، فأنا إذن موجود» ولا شيء أوضح لدى ديكارت من فكره، فهو يؤمن أولاً بوجوده هو، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق، حتى يعرف «ما هو» بغاية الجلاء. (زكي مبارك، ١٩٨٨، ٣٤١).



ثبت بالمصادر والمراجع:

- ١- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، ج٤، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- ٢- الأعمش، عبد الأمير: الفيلسوف الغزالي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١. ٢٣-
- ٣- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت
- ٤- زقزوق، محمد حمدي: تمهيد للفلسفة، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤
- ٥- سليمان، دنيا: الحقيقة في نظر الغزالي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١
- ٦- شاخنت، جوزيف: تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٣، ج١، ط٣، ترجمة محمد زهير السمهوري، وآخرون. الكويت. ١٩٩٨
- ٧- الشمالي، عبده: دراسات في تاريخ الفلسفة الإسلامية، ط٥، دار صادر. بيروت، ١٩٧٩. ٨-
- شمس الدين، عبد الأمير، الفكر التربوي عند الأمام الغزالي، دار أقرأ، بيروت ط١، ١٩٨٥.
- ٩- العسكري، كفاح يحيى صالح، (٢٠٠٢)، الفكر التربوي والنفسي عند الغزالي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد.
- ١٠- العوا، عادل: المذاهب الفلسفية، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٢.
- ١١- مبارك، زكي: الأخلاق عند الغزالي، ط١ دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨
- ١٢- محمد عبد الستار نصار: في الفلسفة الإسلامية، قضايا ومناقشات، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢.
- ١٣- الغزالي، الأمام أبي حامد محمد بن محمد، ت ٥٠٥ هـ، أحياء علوم الدين — وبذيله كتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للإمام زين الدين أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦ هـ. منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت ط٣ / ٢٠٠٢ .
- ١٤- الغزالي، رسالة ايها الولد، تعهد طبعها الحاج فؤاد الدين السيد قوام السامرائي مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٩ .
- ١٥- الغزالي، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق وتقديم د. جميل صليبا ود. كامل عياد، دار الأندلس بيروت، ط ٧ / ١٩٦٧ — واعتمدنا أيضا على النسخة التي حققها وقدم لها جميل إبراهيم حبيب، دار القادسية، بغداد.
- ١٦- الغزالي: المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٧٣
- ١٧- الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، تقديم بدوي طبانة، درا إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
- ١٨- الغزالي: ميزان العمل، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ.



- ١٩- الغزالي: معراج السالكين، ج٢، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٠- الغزالي: محك النظر، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢١- الغزالي: معيار العلم، دار النهضة الحديثة، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٢- الغزالي: كيمياء السعادة، مكتبة الجندي، القاهرة، دون تاريخ.
- ٢٣- النجار، رمزي: الفلسفة العربية، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٩.
- ٢٤- المهدي، السيد: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٣.

